

شجرة الحياة: أداة روائية جماعية للعمل مع أطفال معرضين للخطر

عن كتاب: Denborough, David (2008). *Collective narrative practice: Responding to individuals, groups, and communities who have experienced trauma*. Adelaide, South Australia: Dulwich Centre Publications.

ترجمة: صابرين خياط

أحد التحديات المهمة التي تواجه المهنيين والمجتمعات المحلية هي كيفية الاستجابة لأطفال عاشوا صدمة جماعية و/أو يعيشون في حالة تجعلهم معرضين للخطر بسبب عوامل اجتماعية واسعة (كالفقر، نتيجة للحرب، الكوارث الطبيعية وغيرها). في هذه السياقات، أسلوب تعامل الذي يشدد الإفصاح الفردي للمصاعب يمكنه إضفاء صفة فردية (individualizing) لتجارب ذات صفة جماعية بطبيعتها، وبذلك المساهمة في جعل الأطفال أكثر عرضة للخطر. الاداة المطروحة في هذا الفصل تشدد "الإفصاح الجماعي". هي توفر طرق بمساعدتها يستطيع الأطفال المشاركة بمهاراتهم، قدراتهم، آمالهم وأحلامهم، كما بالعقبات والمخاطر التي يواجهونها وبطرق ردهم/استجابتهم لهذه الصعوبات.

تم تطوير هذه الأداة الروائية الجماعية إجابة على التحديات التالية:

- كيف يمكننا ان نستجيب لأطفال عاشوا صدمة أو فقدان مهمين في حياتهم، بطرق لا تؤدي الى إعادة الصدمة (re-traumatising), تخفف من تأثيرات الصدمة، وتضئ أو تكشف عن مهارات الأطفال ومعرفتهم؟
- كيف يمكننا تزويد الأطفال بتجارب تقوي ارتباطهم بعائلاتهم، بقيمهم وبارثهم الثقافي؟

اداة "شجرة الحياة" تؤمن مساحة آمنة لهوية الاطفال عليها يستطيعون الوقوف قبل التحدث عن صعوبات حياتهم.

لهذه السيرة 4 أجزاء:

الجزء الأول: شجرة الحياة

الجزء الثاني: غابة الحياة

الجزء الثالث: عواصف الحياة

الجزء الرابع: شهادات وأغنية

الهدف من أول جزأين هو بناء والاعتراف ب "القصة الثانية" عن حياة كل طفل. هذه القصة الثانية تتكون من مهارات، قدرات آمال وأحلام كل طفل، وتاريخ كل منها. الهدف من الجزء الثالث هو ان نمكّن الأطفال من تحديد المصاعب أو المخاطر التي قد يعيشونها والتحدث عنها. الهدف من الجزء الرابع هو التأكد من أن الأطفال سيغادرون وبحوزتهم اعتراف غنيّ بمهاراتهم، قدراتهم وعلاقاتهم ب كبار ذوي أهمية (significant adults).

المشتركون مدعوون لأن يرسموا "شجرة الحياة" الخاصة بهم، بينما كل جزء فيها يرمز الى جانب معين من حياتهم وحياة مجتمعهم.

الجزء الأول: شجرة الحياة

- نبدأ اللقاء بنقاش قصير حول الأشجار بشكل عام: أنواع الأشجار التي يعرفونها ويرونها في بلدهم، فوائد الأشجار...
- نشرح لهم باننا سوف نقضي اليوم معا بالتحدث عن حياتنا وتجاربنا بمساعدة معرفتنا عن الأشجار.
- نطلب منهم ان يغنوا أغنية (وإن أرادوا، أن يرقصوا) لكي يروا بأنهم مثل الشجرة أحياء ويمنحون الحياة.
- نبدأ بالفعالية.
- نقدم لهم استعارة الشجرة (metaphor) ونشرح بأن كل واحد منهم سيرسم "شجرة الحياة" الخاصة به والتي تتكون من الجذور، الأرض، الجذع، الغصون، الأوراق والثمار. وان كل من هذه الأجزاء يمثل أو يعبر عن أمر ما في حياتنا:

1. الجذور

إشارة للأطفال للتحدث عن: من أين أتوا (قرية، مدينة، بلد); تاريخ عائلتهم (أصل، اسم العائلة، السلالة، العائلة الموسعة); الأشخاص الذين تعلم منهم الطفل أكثر شيء في حياته; المكان المفضل لديهم في البيت; أغنية أو رقصة من المكان الذين أتوا منه.

2. الأرض

تمثل أين يعيش الطفل في الحاضر; وبعض النشاطات التي يقوم بها خلال حياته اليومية.

3. الجذع

عندما ينتقل التركيز الى جذع الشجرة تكون هذه فرصة للأطفال للتحدث عن بعض مهاراتهم والتعبير عنها بالرسم. هذه تشمل: مهارات ظهرت عندما تحدث الطفل عما يفعل في حياته اليومية; أو مهارات أظهرها الطفل في جوانب أخرى في حياته.

أثناء الأيام التي سبقت فعالية "شجرة الحياة" يسجل المستشارون اللذين يعملون مع الأطفال مهارات يظهرونها. هذه يمكنها أن تشمل: مهارات في فعاليات جسمانية، مهارات رعاية (caring), لطف الخ... إذن, خلال الفعالية ينتبه المستشارون الى كيفية إظهار الطفل لهذه المهارات وباستطاعتهم مساعدته على شملها الى جذع شجرته.

خلال هذه السيرة بإمكان المستشار أن يطرح أسئلة تخص تاريخ هذه المهارات: منذ كم من الوقت يمتلكها الطفل، هل تعلم هذه المهارات من شخص معين... هذا يتيح رواية قصص عن هذه المهارات وتدوينها على الشجرة ايضا.

خلال رسم الجذع يمكن التحدث كذلك عن ذكريات خاصة يتذكرها الطفل وهي قيّمة بالنسبة له. في بعض السياقات يصعب على المشتركين الإجابة عن اسئلة تخص المهارات أو القدرات، ولعلّ في بعض السياقات الثقافية لا يتم إدراكها بمثابة "ملكية" فردية، أو من الغير اللائق ان "يتفاخر" الواحد بنفسه أمام الآخرين. كذلك من الممكن أن تكون هذه المهارات غير مرئية لهم. في هذه الحالات هنالك عدة إمكانيات أمام المسير:

أولاً، قد يكون من الأسهل على الأطفال أن يميزوا مهارات وقدرات بعضهم البعض على أن يميزوا تلك الخاصة بهم. فممكن أن يطلب من الأطفال أن يعطوا اقتراحات لبعضهم البعض وعندها الطفل يختار التي يريد شملها في جذع شجرته.

ثانياً، يمكن تدوين مهارات جماعية يظهرها الطفل في تعامله مع الآخرين، مهارات تعاون الخ.

ثالثاً، يمكننا أن نطلب من الطفل التحدث ليس فقط عن مهاراته وقدراته، انما أيضا عن قيم مهمة بالنسبة له أو عن صفات يطمح أن يظهرها في الحياة وتدوينها على الجذع. ممكن تتبّع تاريخ العلاقة مع هذه القيم والصفات وتدوينها بطريقة أو بأخرى على الجذع.

4. الغصون

غصون الشجرة تمثّل الآمال، الأحلام والأمنيات التي عند الطفل تجاه حياته. عندما يقوم الطفل برسم الغصون، يمكن للمسيّر طرح أسئلة للتعلم عن تاريخ هذه الآمال، الأحلام والأمنيات، وكيف يمكنها ان ترتبط بأشخاص/كبار ذوي أهمية في بيت الطفل. عندما يستمع المسيّر عن المدة الزمنية التي تعيش هذه الآمال والأحلام في حياة الطفل، يمكنه ان يسأله أيضا كيف تمكّن من الحفاظ على هذه الأحلام حتى الآن وماذا يساعده على الحفاظ على آماله. كذلك يمكننا ان نسأل عن الآمال التي يحملوها تجاه حياة أشخاص آخرين، صغار أو كبار، وكذلك تجاه مجتمعهم.

5. أوراق الشجرة

أوراق الشجرة تمثّل الأشخاص المهمين بالنسبة للطفل. المسيّر يوضّح ان هؤلاء يمكنهم ان يكونوا أحياء أو متوفين. حتى لو لم يكونوا أحياء، هذا لا يعني انهم ليسوا مهمين جدا بالنسبة لنا. بإمكان المستشارين أن يسألوا الأطفال لماذا هؤلاء الأشخاص بالذات هم مهمين بالنسبة لهم. إذا حدث في وقت ما أثناء هذه السيرورة وأن تحدّث الأطفال عن بعض الأشخاص الذين توفوا وبدا انهم متضايقون من ذلك، بإمكان المستشارين أن يسألوا الأسئلة التالية:

- هل قضيت أوقاتا ممتعة مع هذا الشخص؟
- ما المميز/الخاص في هذا الشخص بالنسبة لك؟
- هل تعتقد بان هذا الشخص كان قد يحب ان تتذكره بهذه الطرق؟

هذه الأسئلة تدعو الطفل ليحكي قصصا عما كان مهما له بكل ما يتعلق بعلاقته مع الشخص المتوفي. هذا يساهم في إبداء الاحترام والتقدير لهذه العلاقة. هذا قد يؤدي أيضا الى قصص عن كيف يواصل الطفل التفكير ب وتذكر اللذين توفوا.

يمكن للأطفال أيضا ان يشملوا حيوانات أليفة، أصدقاء خياليين وشخصيات من قصص كأوراق شجرتهم.

6. الثمرات/ حبات الفاكهة

ثمرات الشجرة تمثّل هدايا أعطيت للطفل. هذه ليس من الضروري ان تشمل هدايا مادية انما أيضا معاملة لطيفة، حب وحنان من قبل الآخرين... هنا بإمكان المستشار أن يسأل:

- لماذا تعتقد بان هذا الشخص أعطاك هذا الشيء؟
- ماذا علّمهم قدّروا بك ليجعلهم يفعلون ذلك؟
- باعتقادك، بماذا ساهمت انت لحياتهم؟

إذا صعب على الطفل تمييز اية هدايا، بإمكان المستشار ان يعتمد على ما شارك به الطفل مسبقا خلال تمرين "شجرة الحياة".

7. الأزهار/البذور

أزهار أو بذور الشجرة تمثل الهدايا التي يرغب الطفل بإعطائها للآخرين ويمكنها ان تمثل ايضا المساهمات التي يقوم بتقديمها للآخرين في الوقت الحاضر. بالإضافة الى ذلك، بالإمكان دعوة الأطفال للمشاركة بمساهماتهم لمجتمعهم، أو باي مساهمة مستقبلية كان بودهم القيام بها من اجل مساعدة المجتمع ليكون مكانا امنا لأطفال أصغر منهم.

الجزء الثاني: غابة الحياة

بعد انهاءهم رسومات الأشجار، ندعو الأطفال ليلصقوها على الحائط، مما يكون غابة جميلة من الأشجار. ندعو بعض المتطوعين ليشاركوا بقصص أشجارهم أمام المجموعة.

عندما يتحدث المتطوعون نتعلم منهم عن آمالهم واحلامهم.

بالإمكان ان نسأل أسئلة متنوعة عن: تاريخ الآمال والاحلام التي عرضت، من يعلم عنها في عائلتهم أو في حياتهم.

بالإضافة، يمكننا ان نجلس امام غابة الحياة نتأملها ونقيّمها. مثلا، بواسطة الرواية من جديد- retelling يمكننا ان ننوه الى قوة الجذور وعمقها في جميع الرسومات. ان نذكر بالآمال والاحلام التي نمتلكها جميعا بالنسبة لحياتنا. ان نذكر الأشخاص الذين نرتبط بهم والذين علمونا الكثير في حياتنا ولا يزالون يهتمون بنا ويدعموننا بعدة طرق (يمكن ذكر "دور" الأشخاص الذين ذكرهم الأطفال- أمهات اباء معلمة جدة الخ). خلال الرواية من جديد نعبر أيضا عن ان جزءا من هؤلاء الأشخاص العزيزين قد توفوا، لكننا لا نزال نحمل منهم ذكرى طيبة ومحبة لأجل الأشياء الرائعة التي فعلوها من اجلنا. نتحدث عن كيف ان هذه العلاقات التي تجمعنا ستستمر في دعمنا بطرق عديدة في حياتنا.

من بعد الرواية من جديد نتحدث عن الأشجار في الغابة. ما هي أوجه الشبة وربما أيضا الاختلاف بينها. هذا يؤدي الى محادثة حول المشترك بين الأطفال وبين الكبار الموجودين في المجموعة، والطرق التي بواسطتها ندعم بعضنا البعض كأشجار تنتمي الى نفس الغابة.

استراحة

الجزء الثالث: عواصف الحياة

بعد ان بنيت مساحة أخرى والتي باستطاعة الأطفال الوقوف عليها، نريد اذن ان نكون فضاء:

- يمكنهم من التحدث عن بعض الصعوبات التي يعيشونها في حياتهم، ولكن بطريقة لا تعيد الصدمة (re-traumatising).
- فيه يتحدثون بصورة جماعية عن هذه التجارب.
- يمكننا الاعتراف بوجود أذى وتأثيرات للاعتداءات على حياتهم.
- فيه يكون واضح بانه لا يمكن إيقاع الذنب على الأطفال ابدأ.
- يمكن من اكتشاف والاعتراف ببعض المهارات والمعرفة التي أظهرها الأطفال خلال محاولاتهم الردّ على المخاطر والعقبات التي واجهوها في حياتهم.

• يفتح المجال امام الأطفال بان يشعروا بأنهم أكثر قدرة على التكلم عن تجاربهم، معنا او مع بعضهم البعض، وبن تصبح مهاراتهم ومعرفتهم مرئية لهم بشكل أكبر.

نجتمع ثانية كمجموعة ونسترجع محادثتنا حول الأشجار والغابات. هنا نريد ان نلفت نظر الأطفال الى المخاطر التي تواجه الأشجار والغابات أحيانا، كما ان نتحدث عن تأثيرات هذه المخاطر عليها.

بالإمكان ان نفتح الحديث هكذا: "لدينا أشجار رائعة، التي لديها جذور قوية، أوراق جميلة وثمار. مع ان الأشجار والغابات رائعة بهذا الشكل، هل يمكننا ان نقول انها خالية من الخطر؟" (الأطفال بسرعة يردون "لا"). عندها ندعو الأطفال بان يذكروا المخاطر التي يحتمل ان تواجهها الأشجار الجميلة (مثلا الحرائق، البرق، قطع الأشجار، رفسها، التبول عليها، الكبر بالعمر-يمكنها ان تشيخ وتموت، ان لا يكون لديها ماء).

هذه المحادثة تكون نقطة بداية آمنة لمناقشة المخاطر والمشاكل التي يواجهها الأطفال في الحياة.

"لقد شبّهنا حياتنا لحياة تلك الأشجار الجميلة في الغابة. هل من الصحيح ان نقول بان الأطفال، كالأشجار والغابات، أيضا يواجهون المخاطر والمحن؟" (الأطفال يجيبون ب "نعم!"). عندها نقضي بعض الوقت لنعدّد المشاكل والمخاطر التي تواجه الأطفال (بشكل عام). هذه تشمل مثلا: الاغتصاب، التعرّض لاعتداء، الهجر-الترك، الشتم على الأطفال، الإهمال، المنع عن الطعام، الطرد من البيت، الخطف، قتل الأطفال، أطفال يعيشون في الشوارع، أطفال يدخنون الصمغ، أطفال يجبرون على بيع أجسادهم للجنس...

بعدها تناقش تأثيرات هذه المخاطر على حياة الأطفال بصورة مطوّلة أكثر (الأطفال في المجموعة يميزونها). ولا باي مرحلة من المراحل يطلب من الطفل ان يشارك بتجاربه الشخصية.

ما هو رد فعل الأطفال في وجه عواصف الحياة؟

بعد ان وصلنا الى نقطة فيها حدّدنا عواصف الحياة وتتبعنا تأثيراتها، عندها نسأل الأطفال إن كان هذا ذنب الشجرة او الغابة عندما أتت العاصفة. نسألهم هل يجوز تذييب الاشجار او الغابات بالنسبة للمخاطر التي تواجهها: حرق الأشجار، قطعها، التبول عليها الخ. ("لا!" , يجيب الاطفال). هذا يسنح الفرصة لكي نسأل عما إذا كان هذا ذنب الأطفال بأنهم أيضا يواجهون المخاطر والصعوبات مثل الأشجار (مرة أخرى، "لا!" يجيبون).

الان نريد ان نتعلّم عما يفعل الأطفال عندما تأتي هذه المشاكل والعواصف الى حياتهم. لكي نسهّل تمييز ردود فعل الأطفال عندما تأتي العواصف، بإمكان الميسّر أن يبدأ بنقاش حول كيفية رد فعل الحيوانات الى العواصف عندما تتواجد في الغابة. قائمة ردود الفعل يمكنها ان تشمل: مهارات الاختباء، حماية بعضهم البعض، الهروب، ان يطيروا بعيدا، صنع حفرة عميقا بالأرض، بناء عش، الاحتشاد معا وغيره...

بعد الاعتراف بان الحيوانات ليست خاملة عندما تضربها العاصفة، يكون بإمكان الأطفال ان يأخذوا بعين الاعتبار بأنهم ليسوا مجردّ خاملين في وجه المصاعب (أحيانا يملك الأطفال المعرفة أيضا حول كيف تحمي الأشجار والغابات أنفسها من مخاطر الطبيعة).

عندما يشعر الميسّر بان الأطفال جاهزون، بالإمكان طرح السؤال: "حسنا، هذه هي بعض الطرق التي بواسطتها ترد الحيوانات في وجه العواصف... ماذا عن كيف يرد الأطفال عندما تأتي العواصف الى حياتهم؟ هل هنالك طرق يردون فيها؟ هل هنالك أشياء يعملونها؟ هل يحاولون حماية أنفسهم وحماية الآخرين كما تفعل الحيوانات؟ (قائمة ردود الفعل ممكن ان تشمل: طلب المساعدة، التكلم مع معلم/ة/ عاملة اجتماعية/عمة/صديق/ة، الهروب لحماية أنفسهم وغيرها).

كذلك يمكننا ان نسأل عن كيف يحافظ الأطفال على أحلامهم ورؤيتهم أثناء العواصف.

الآن نوزّع الأطفال الى مجموعات صغيرة (4-5 أطفال)، والتركيز يكون على 3 أسئلة:

- هل العواصف حاضرة دائما في حياتنا؟
- هل حياتنا تكون خالية من العواصف أحيانا؟
- ماذا نفعل عندما تمضي العواصف؟

هنا ممكن ان نطلب من الأطفال أيضا ان يرووا قصصا لبعضهم البعض حول اشخاص يسعدونهم ويعطونهم الدعم. وكذلك التكلم عن كيف يساهمون هم في سعادة الآخرين.

الجزء الرابع: شهادات

توزّع شهادة لكل طفل فيها تدوّن: اماله، أحلامه ومهاراته. كذلك يذكر فيها بتقدير واحترام الأشخاص الخاصّين/المميزين في حياته. بالإمكان دعوة عمالا/موظفين آخرين لحفل توزيع الشهادات.

كتابة رسالة لمن يعتني بالطفل

في نهاية اليوم من الممكن ان نفتح المجال امام الأطفال لأن يكتبوا رسالة لمن يعتني بهم، بواسطتها يشاركونه بتجربة تمرين "شجرة الحياة". هذا من شأنه ان يخلق لهم الفرصة للتكلم عما يقدرّون في حياتهم داخل سياق عائلاتهم. كذلك علّه يكون سبيلا ليعترفوا ويقدرّوا الدعم الذي يتلقونه من قبل الذين يعتنون بهم بطريقة تحافظ على هؤلاء الأشخاص.

- نطلب من الأطفال ان يحددوا من هو الشخص الذي يرعاهم والذي بودهم ان يكتبوا له.
- ثم نشجعهم ان يشملوا في رسالتهم وصفا لقيمهم، مهاراتهم، امالهم واحلامهم والتي تحدثوا عنها خلال اليوم.
- نشجعهم أيضا على الاعتراف بمساهمة الشخص الذي يعتني بهم لحياتهم ودعوته الى مجموعة الدعم عندما يجد الوقت لفعل ذلك.

من المهم الانتباه الى ان جزءا من الأشخاص الذين يعتنون بالأطفال لا يجيدون القراءة، ولذلك نذكر للأطفال بانه من المفيد ومن دافع الاحترام ان يقرؤوا لهم الرسائل بصوت عالي.